في الأدب المصري

مجالس الأدب
في القرن الثامن عشر

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

لقد هممت اليوم أن أكتب إلى الرسالة الغراء مقالاً ثانياً أستأنف فيه وصف مجالس الأدب في مصر في القرن الثامن عشر في أيام رضوان بك أمير مصر وأحد مليكيها في ذلك العصر، ولكني رأيت الأمر قد استعصى علي إذ جعلت أنقل من قول أحد شعراء العصر بعض ماراقني، وذلك الشاعر هو ابن الصلاحي، فرأيت ذلك البعض الذي اخترته قد زاد على المقدار الذي يجمل بي أن أجعله لمقال واحد. فعدلت عن رأيي الأول وقلت حسبي أن أخص بهذا المقال ذلك الشاعر وحده. ولعل الاختصار على حديث شاعر واحد أبلغ في قصدي وأقوى لحجتي التي أرمي من ورائها إلى بيان حقيقة في تاريخ مصر. فان غزارة قول شاعر واحد من شعراء هذا العصر لدليل على أن ثقافة ذلك العصر لم تكن ثقافة ضحلة، بل كانت ثقافة أعمق وأقوى مما يتوهمه الكثيرون

كان ابن الصلاحي ناظماً وناثراً وعالماً من علماء العصر. نال من العلم الموروث أقصى ما يناله المتطلع إلى الحياة العقلية. وقد كان تلميذاً للشيخ محمد الحفني المشهور وأجازه ذلك الشيخ إجازة علمية قد يكون من الطريف أن ننقلها هنا. قال الشيخ:

«نحمدك ياعليم يافتاح، ياذا المن بالعلم والصلاح، ونصلي ونسلم على أقوى سند، وعلى آله وصحبه معادن الفضل والمدد. أما بعد فان المولى العلامة الفهامة الحاذق الأديب، واللوذعي الأريب، مولانا الشيخ محمد الصلاحي السيوطي قد حاز من التحلي بفرائد المسائل العلية أوفى نصيب، بفهم ثاقب وإدراك مصيب، فكان أهلاً للانتظام في سلك الأعلام، باجازته كما هو سنن أئمة الاسلام، فأجزته بما تضمنته هذه الوريقات، من العلوم العقلية والنقلية المتلقاة عن الاثبات، وبسائر ما تجوز لي روايته أو ثبتت لدى درايته، موصياً له بتقوى الله التي هي أقوى سبيل للنجاة، وألا ينساني من صالح دعواته في أوقات توجهاته، نفعه الله ونفع به، ونظمه في عقد أهل قربه، وأفضل الصلاة والسلام على أكمل رسل السلام وعلى أئمة الهدى، وصحبه نجوم الاقتدا. كتبه محمد بن سالم الحفناوي الشافعي ثامن جمادى الثانية سنة ثمان وسبعين ومائة وألف»

وقد كان ابن الصلاحي فوق ذلك كاتباً حسن الخط كتب نسخة من القاموس بخط يده، وقد كان للخط الحسن نهضة في ذلك العصر مثل سائر أحوال البلاد، فقد نبغ من معلميه جماعة من أفاضل الكتاب مثل الضيائي والشاكري والجزائري والحمامي

ولكن أكبر ما امتاز به ابن الصلاحي ميله إلى فن الأدب، فقد أخذ منه بالحظ الأوفر، وقد اتصل بحلقة الأدب في بلاط الأمير رضوان ونال من خيره الشيء الكثير. على أنه كان غير منقطع اليه، بل كانت له مجالس خاصة مع جماعة من أدباء عصره ومشيخة العلم فيه. ولعل خير ما قاله من قصائده ماجاش في نفسه في تلك المجالس الخاصة

قال يصف خطرات نفسه:

بثّا عن النائي الغريب ... جملاً من الخبر العجيب
واستوقفا الركبان ما ... بين الاراكة والكثيب
واستنشدا القلب الذي ... قد ضاع من بين القلوب
سلبته يوم الدوحتيـ ... ـن طليعة الرشأ الربيب
وسرت به نحو الخيا ... م يد الصبا ويد الجنوب
ترنو الهوادج عن صفا ... شمس تميل إلى الغروب
والبدر يذهب من خلا ... ل السحب في مرأى عجيب
والرق يخفق والمزا ... هر مثل قلبي في وجيب
يا حادي العيس التي ... سارت على قلبي الجنيب
علل عليل هوى فعهـ ... ـدك ما تقادم بالطبيب

* * *

إني وإن شط النوى ... وقف على حب الحبيب
كابدت ما كابدت من ... شق المرائر والجيوب
وعلمت كيف تقوم أسـ ... ـواق المعارك والحروب
ولقيت دون البيض وقـ ... ـع السمر بالصدر الرحيب
من كل ريم جائل ... في برد جردته القشيب
يحكي الغزالة في الترفـ ... ـع والغزالة في الوثوب

ألحاظه ترويك ديوا   ن الحماسة عن حبيب
وقمات أسهمه تركـ   ن جميع جسمى فى ندوب

* * *

كم ليـــلة عانقت فيـ   ـها قامة الغصن الرطيب
فى معهـد ما فض عنـ   ـه الأنس إلا ختم طيب
والزهر يضحك من بكا   ء الطل بالثغر الشنيب
والريح تكتب فى الغديـ   ـر حديث أسرار الغيوب
والطـير تقرأ والغصو   ن تهز أعطاف الطروب
والورق تصدح فى الغصو   ن بصوت محزون كئيب
فى رنة الشـــادى وهيـ   ـنمة القطا والعندليب
عجماء تعرب فى السؤا   ل وتستجيب بلا مجيب
والليــــل أرسل ذيله   رصداً على أعلى القضيب
يحكى الشـــعور كأنه   يروى الفروع عن الخطيب

. . .

أرنو وأحشائى من الـ   ـحدثان فى شك مريب
لولا الرقيب ظفرت من   لقيـــاه بالفرج القريب
وكشفت من وصـلى به   ما قد ألم من الكروب

ولئن حل بنفس القارىء من هذه النفثة مثل ما حل بقلبي، لأيقن أن ابن الصلاحى إنما كان يترجم عن قلب نابض بحياة حقيقية لا تكلف فيها، وأنه كان يصدح بأنغام تبين عن حرارة ووجدان طبيعي. وها هى ذى نفثة أخرى أختارمنها البعض لا أنه أحسن ما بها، ولكنه مثل مما تحويه من آيات. وهى فى مدح شيخه الحفني:

ميل بى فقد وقد الهجير   إنى بظلك مســــتجير
وأرح مطيك يا سميـ   ـر فقد أضر بها المسير
هذا الحمى فارصـد إذا   ما استأنس الظبي النفور
واطرق كناس الغيد حيـ   ـث ينام راعيه الغيور
وأمط ســـتائره فذ   لك حين تنفتح الخدور
واسأل من الظبيات عن   عهد تضن به الصدور
واحفظ فؤادك أن تصيـ   ـب عيونهن فهن حور
من كل غانيـــة يلو   ح بوجهها القمر المنير
تختال فى مرح الشبا   ب فيخجل الغصن النضير
تسمى فتقعدها روا   دفها وينهضها الحضور
سكرى رأت كسر القلو   ب فصار ناظرها الكسير
فملت بسحر جفونهـا   ما ليس تفعـله الخمور
حنثت معاطف خدها   لـكن لواحظها ذكور
لم أنس إذ وافى البشيـ   ـر يلوح فى فمه السرور
إذ أقبلت ريح القبو   ل بها وأدبرت الدبور
فضممتهـا ومهجتى   من حر أشواق سعير
فتعوذت بالروض من   شر بأنفاسى يطـير
روض تعلق بالمجر (م)ة من جوانبه نهور
تبدو به زهر الزهو   ر لأنه فلك يدور
ضحكت ثغور زهوره   فبكى لهـا النوء المطير
وحنت نواعره وحنـ   ـت وهى من غيظ تفور
ذكرت قديم عهودها   فانهـلّ مدمعها النمير
يا طيب أنفاس الربيـــع فنى تنفسها عبير
والجو مجمرة عليـ   ـها من ضبابتها بخور

* * *

والورق ساجعة لهـا   فى كل ناحيـة سمير
عجماء تعرب عن ضما   ئرنا وليس لهـا ضمير
والريح تمتنق الغصو   ن بها فتمتبق الزهور
وبدت شموس الراح يحـ   ـملها الكواكب والبدور

* * *

وبكت عيون السحب حيـ   ـن تساقط الدمع الغزير
نحنـا معاً فتحلت الا م أغصان منا والنحور
رعيـا لذياك الحمى   والطرف مبتهج قرير
قد لج بالقلب الغرو   ر وذلك الطرف الغرير
وسرور أيام الصبا   من دونها العيش المرير

ثم انتقل إلى مدح شيخه ومضى فيه مثل قوله:

ملأ النواظر منـه إجـ   ـلالا وليس له نظير
وحمـاه ينفك الأسيـ   ـر به ويستغنى الفقير
منن تذل لهـا الرقا   ب ولا يقوم بها الشكور
وجرت لنحو حماك آ   مالى وأنت بها جدير

. . .

خذها على شرط الصيا   رف إن ناقدها بصير

أليس هذا قولاً يترجم عن قلب جياش وخيال وثاب؟

وقال فى بعض مجالسه :

هات لى قهوة الشفا من شفاهك ... واسقنيها على نخامة جاهك
عاطنيها يا أوحد العصر لطفا ... وبديع المثال فى أشباهك
يا غزالا لو صور البدر شخصا ... ليضاهيك فى البها لم يضاهك
عاطنيها جهراً شفاها ولا تخـ ... ـش ملاما فلذتى فى شفاهك

وأرسل إلى صديق له :

ذكرتك لا أنى نطقت وإنما ... ذكرتك فى نفسى فكنت سميرها
ذكرتك فى روض تبسم عن شذا ... وقد فتحت كف النسيم زهورها
ذكرتك والأطيار تنطق عن هوى
كأنك قد آويت منها ضميرها
فلا خير فى أرض إذا لم تكن بها ... سميراً ولا فى روضة لن تزورها

ذلك مثل من أدب حى حياة تنبض قوية ، يتفتح عن زهر نضير غض ، وهو فى الوقت عينه أدب عميق قوى ، تسمع منه نغمة حلوة بليغة تدل على روح شعب محس بنفسه آخذ فى سبيل الحياة والشباب

فالحق أن شعب مصر فى القرن الثامن عشر ، كان آخذاً فى سبيل نهضة حقيقية فى كل جوانبه ، نهضة وطنية صرف لا تشوبها رطانة أجنبية ولا لوثة أعجمية ولا سيطرة غربية . نهضة لو سارت فى سبيلها وبلغت قصاراها لكانت مصر بها اليوم فى مستوى اليابان أو إيطاليا أو فيما هو فوق ذلك . غير أن القرن الثامن عشر ، واحسرتاه ، انتهى بنكبة شاملة وداهية فادحة باغارة الفرنسيين على مصر ، واكتساحهم كل آثار تلك النهضة الشابة فقضى عليها ولما يتم نموها ، وحفرت بين ماضى مصر وحاضرها هوة عميقة تقطع تيار الرقى الوطنى ، وتقف فى سبيل وصل الطارف بالتالد

فمجد مصر السياسى فى القرن الثامن عشر أصبح نسياً ، ومجد مصر الاجتماعى فى ذلك القرن كذلك قد أصبح أثراً دارساً ، وجهاد مصر الدستورى قد صار دفيناً تحت أنقاض تلك الكارثة ، فلم تبق منه معالم ولا آثار . غير أنا إن فاتنا أن نبنى على أثر هذا التراث المنهوب ، أو ضاع علينا أن نصل حاضرنا بذلك الماضى المضيع ، فليس أقل من أن نعرف أن لنا فى ذلك الماضى أنفاساً يليق بنا أن نحرص عليها ، وأنغاماً يجمل بنا أن نسجلها

محمد فريد أبو حديد

كيف حفرت بئراً

.... لنفسى ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

شقراء ، ذهبية الشعر ، لا أدرى كيف أنبتها هذه الصحراء ؟ ومن بنات الفقراء ، ولكنّ لها دلاً وأناقة تخطئهما عند اللواتى نشأن فى كنف النعمة والترف والثراء ، وفى كلامها خفة وهَزَجٌ ، وفى مشيتها تبختر لا يثقل ، ومَيْس ليس من الاختيال . وكانت ترسل شعرها الوحف ولا تفرقه أو تضفره أو تعقصه ، بل ترده عن جبينها الوضاء وتحسر جمته عن أذنٍ ، وتستر به أذناً . ولا تثبته بالأمشاط أو الدبابيس ، ولا تعصب رأسها بالمناديل ، فاذا عبث به الهواء وأسال قصّها على وجهها رفعت الشعرات بأصبعها أو نحتها عن أذنها ، وكنتُ لا أراها تبتسم إلا خيّل إلى أنها ترى حلماً يسرّها فيثب قلبى إلى حاقى ، وأجدُ حرّ النار فى كفى

وكان بيتى فى ذلك الوقت على « نخوم العالمين » وكانت له حديقة صغيرة جعلتها شغلانى . وكان الماء كثيراً وثمنه زهيداً ، لا يتجاوز خمسة عشر قرشاً فى الشهر بالغاً ما بلغ ما أجريت منه ، فكنتُ آخذ كفايتى منه وأسنّه على وجهه للجيران ، وكانت هذه الشقراء تجيء كل مساء بجرة فتملؤها مرة أو اثنتين أو عشراً — كما تشاء . فأقف لها وأحادثها وأساعدها على رفع الجرة إلى رأسها . ولم تكن هى الوحيدة التى تستسقى ، ولكنها كانت أبرعهن شكلاً وأخفهن على الفؤاد ، وكانت تأنس منى الميل إليها والإعجاب بها ، فتطيل الوقوف معى أحياناً ، أو تتولى عنى عزقَ الأرض أو بذرَ الحب أو سقىَ الزرع ، واجتزازَ الكلأ والعشب والحشيش أو نزعَ ذلك بأصوله ، وكانت أعرف منى بذلك كله وأخبر ، وكانت تضحك منى لجهلى فتقول لى مثلاً :

« ألا تحشُّ هذه الملوخية ؟ لقد كادت تكتهل »

فأقول : « ملوخية ؟ لقد طرحتُ هناحب فجل فكيف تخرج الأرض ملوخية ؟ »

فتقول : « كلا ، هـــذه ملوخية وقد بلغ نبتها المدى ، فاختضرها [1] وإلا فسدت »

(١) الاختضار جز الخضرة